

مقالات في الذكرى 140 لوفاة الإمام المكي



عبد الله علي إبراهيم
محمد الواصل عبد الحميد الجريفاوي
محمد المصطفى موسى

مقالات في الذكرى 140 لوفاة الإمام المهدي

أ.د. عبد الله علي إبراهيم
د. محمد الوائلي عبد الحميد الجريفاوي
د. محمد المصطفى موسى

الطبعة الأولى
2025م

مقالات في الذكرى 140 لوفاة الإمام المهدي

أ.د. عبد الله علي إبراهيم
د. محمد الواثق عبد الحميد الجريفاوي
د. محمد المصطفى موسى

الإيداع القانوني

2025/.....م



دار آريثريا للنشر والتوزيع
Arithria for Publishing and Distribution

الناشر

دار آريثريا للنشر والتوزيع - الخرطوم - السودان
جوال: 00249122094856 - 121566207
البريد الإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى - 2025م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله
بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

(سورة العصر)

المحتويات

الصفحة	الموضوع
9	الفصل الأول 140 عاماً على وفاة الإمام المهدي القيادة التغييرية دراسة تحليلية في ضوء المقدرات الذاتية للإمام المهدي ”الوعي والتأثير“ 1881-1885م د. محمد الواصل عبد الحميد الجريفاوي
27	الفصل الثاني الذكرى الـ 140 لوفاة الإمام المهدي: ومشى في الصبا قسيم الحيا. أ. د. عبد الله علي إبراهيم
37	الفصل الثالث الذكرى 140 لرحيل المهدي.. وثائق غائبة أم مُغيّبة د. محمد المصطفى موسى

الفصل الأول

140 عاماً على وفاة الإمام المهدي

القيادة التغييرية
دراسة تحليلية في ضوء المقدرات الذاتية
للإمام المهدي
«الوعي والتأثير»
1881-1885م

الفصل الأول

140 عاماً على وفاة الإمام المهدي

القيادة التغييرية

دراسة تحليلية في ضوء المقدرات الذاتية

للإمام المهدي

«الوعي والتأثير»

1881-1885م

د. محمد الواصل عبد الحميد الجريفاوي

تمهيد:

دائماً ما أبدأ مساهماتي في أي موضوع مرتبط بالتاريخ بأن القصد من دراسة التجارب الإنسانية عبر التاريخ ليس إعادة إنتاجها، كما أن إسقاط المفاهيم الحديثة والمعاصرة على وقائع الماضي لا ينبغي أن يكون بغرض محاكمتها أو اختبار صلاحيتها. وإنما تكمن القيمة الحقيقية لهذه العملية في استحضار الماضي برؤى جديدة تُسهم في تعميق الفهم وتوسيع آفاق التحليل. فالتاريخ، حين يُقرأ بوعي، يُمثل قاعدة صلبة للانطلاق نحو مستقبل أفضل. أما إذا تم التعامل معه بمعزل عن الحاضر والمستقبل، فإنه يتحول إلى ترف فكري لا طائل من ورائه.

إضافة إلى أننا لسنا مطالبين بإعادة إنتاج التجارب الإنسانية كما وقعت، ولا من الإنصاف أن نحاكم حوادث التاريخ بمفاهيم العصر الحديث. إنما الغاية من النظر إلى الماضي هي أن نمنحه فرصة أن يُضيء لنا الطريق، أن نستحضره بعين جديدة وب عقل مفتوح. فإذا لم نَسند ظهورنا إلى التاريخ، ونقف على أرض الوعي بما كان، فلن نستطيع أن نخطو

بثقة نحو ما سيكون. وأنداك، تصبح دراسة التاريخ مجرد رفاهية ذهنية، لا تصنع واقعاً ولا تبني مستقبلاً.

في عالم اليوم المتغير بسرعة، تبرز أهمية نماذج القيادة التي تعي وترتكز على التغيير الجذري والتحول البناء، القيادة التغييرية (Transfor-mational Leadership) تمثل إطاراً فكرياً حديثاً يسلط الضوء على كيفية إحداث تأثير عميق ومستدام في الأفراد والمؤسسات والمجتمعات.

عند الحديث عن تاريخ السودان، لا يمكن تجاوز سيرة الإمام المهدي، ليس فقط كشخصية دينية مؤثرة، بل كقائد (تغييرى) قاد تحولاً كبيراً في وعي المجتمع السوداني في أواخر القرن التاسع عشر.

دراسة سيرته تتيح لنا فهم كيف نشأت المهديّة كحركة مقاومة دينية وسياسية ضد الاستعمار، وكيف أصبحت دولة تواجه تحديات الحكم، التنوع، والتغيير. ومن خلال هذا الفهم، يمكننا قراءة ملامح الهوية السودانية الحديثة بشكل أعمق.

كما أن سيرة الإمام محمد أحمد المهدي (1844-1885) تمثل مدخلاً أساسياً لفهم واحدة من أكثر الحقب تحوُّلاً وتأثيراً في تاريخ السودان الحديث، وهي حقبة الدولة المهديّة (1885-1898)، إن دراسة سيرة الإمام المهدي ليست مجرد استرجاع لحياة شخصية دينية أو سياسية بارزة، بل هي نافذة لفهم ديناميات التغيير الاجتماعي والديني والسياسي في السودان في أواخر القرن التاسع عشر.

القيادة التغييرية في ضوء تجربة الإمام محمد أحمد المهدي

إن ربط مفهوم القيادة التغييرية بتجربة الإمام المهدي يوفر إطاراً غنياً لدراسة القيادة في السياقات التاريخية، ويثري فهمنا لكيفية قيادة التغيير في المجتمعات ذات التنوع الثقافي والاجتماعي. كما يفتح المجال لإعادة التفكير في كيفية توظيف الإرث التاريخي في تطوير نماذج قيادية معاصرة.

على الرغم من حداثة هذا المفهوم، نجد في التاريخ نماذج قديمة جسدت معاني القيادة التغييرية، من أبرزها تجربة الإمام محمد أحمد المهدي، الذي قاد ثورة ناجحة في السودان في القرن التاسع عشر.

تهدف هذه المقالة إلى قراءة شخصية الإمام المهدي من منظور نظريات القيادة التغييرية، وتسليط الضوء على الكيفية التي أثرت بها مقدراته القيادية في إشعال الثورة، وتوجيهها، وتحقيق أهدافها في مواجهة نظام استعماري متجذر. انطلاقاً من أن سيرة الإمام المهدي تُعد نموذجاً حياً لفاعلية القيادة التغييرية في سياق مضطرب، حيث استطاعت شخصية واحدة ذات مقدرات استثنائية أن تعيد تشكيل وعي جمعي، وتؤسس مشروعاً تحريراً واسع الأثر.

إن قراءة سيرة الإمام المهدي في ضوء نظريات القيادة الحديثة لا تسهم فقط في فهم نجاح الثورة المهدية، بل تفتح الباب لفهم أعمق لدور القادة الملهمين في إحداث التحولات الجذرية في مجتمعاتهم، خصوصاً في البيئات التي تفتقر إلى المؤسسات الحديثة وتعتمد بشكل كبير على القيادة الشخصية.

في هذا المقال، أحاول أن أستعرض مفهوم القيادة التغييرية، ثم أبرز كيف تجسدت ملامحها في قيادة الإمام المهدي، مستعرضاً أهم الأبعاد التي جعلت من قيادته نموذجاً فريداً للتغيير.

مفهوم القيادة التغييرية:

القيادة التغييرية تعني القدرة على إحداث تغيير جذري في الأفكار والقيم والسلوكيات لدى الأفراد، وتحفيزهم نحو تحقيق رؤية مستقبلية طموحة. القائد التغييري لا يكتفي بإدارة الواقع الحالي، بل يعمل على تطويره وتحويله، مستخدماً الإلهام، والتحفيز الفكري، والاعتبار الفردي لتحقيق أهداف تتجاوز المصلحة الذاتية إلى خدمة المجتمع ككل.

خصائص القيادة التغييرية:

تكمّن خصائص القيادة التغييرية في العديد من النقاط أخصها (وفق مقتضيات الطرح) في النقاط التالية:

1. الرؤية الواضحة: وجود تصور مستقبلي ملهم.
2. التحفيز والإلهام: القدرة على دفع الأفراد نحو التغيير بإيمان وحماس.
3. التحفيز الفكري: تشجيع التفكير النقدي والإبداع.
4. الاعتبار الفردي: فهم ودعم الاحتياجات الفردية لأعضاء الفريق.

ويمكننا اسقاط تلك الخصائص على الإمام المهدي باعتباره نموذجاً للقيادة التغييرية على النحو التالي:

أولاً: الرؤية الاستراتيجية والإصلاحية:

كانت رؤية الإمام المهدي تتجاوز مجرد الاستقلال السياسي؛ فقد أراد بناء دولة جديدة قائمة على قيم الإسلام والعدل الاجتماعي. رؤيته تضمنت توحيد السودان وإعادة تشكيل الولاءات من الانتماءات القبلية إلى الولاء للدعوة المهدية، وهي رؤية تنموية شاملة هدفها إحداث تغيير جذري في البنية الاجتماعية والسياسية.

ثانياً: الإلهام والتحفيز:

نجح الإمام المهدي في جمع قوى متعددة ومتنوعة خلف مشروعه، مستنداً إلى رمز المهدية الذي كان يشكل قوة روحية معنوية، وجعل من الثورة فعلاً جماهيرياً مؤمناً بهدفه، مما منح الثورة قوة دافعة هائلة.

ثالثاً: التحفيز العقلي والروحي:

قدم الإمام المهدي خطاباً دينياً واجتماعياً جديداً، يحرر الناس من التبعية والجمود، ويشجعهم على المشاركة الفاعلة في صنع مستقبلهم.

هذا الخطاب كان سبباً رئيسياً في التحول العقلي الذي حدث في المجتمع السوداني.

رابعاً: الاعتبار الفردي والعدالة

على الرغم من مركزية السلطة في الدولة المهدية، فقد اعتمد المهدي على اختيار القادة والأفراد الذين يظهرون الولاء والكفاءة، متجاوزاً الولاءات القبلية الضيقة، مما ساعد على بناء نظام أكثر تكاملاً وفعالية.

خامساً: الأثر والتأثير:

هذه الصفات جعلت من الثورة المهدية تجربة نجاح في إدارة التغيير، وأثرت بشكل كبير في تشكيل هوية وطنية جديدة، وقدمت نموذجاً قيادياً يمكن الاستفادة منه لفهم الديناميكيات الاجتماعية والسياسية اليوم.

تحدي معرفي: إشكالات دراسة سيرة الإمام المهدي:

وقبل الخوض في استعراض مظاهر القيادة التغييرية للإمام المهدي ، سأتطرق الى بعض الإشكالات المرتبطة بتناول سيرة الإمام المهدي ، حيث تبرز العديد من الإشكالات عند الخوض في دراسة تاريخ الثورة المهدية وبخاصة سيرة الامام المهدي، منها ما هو مرتبط بالمنهج ومنها ما هو متعلق بالمصادر :

أولاً : إشكالات المنهج:

كثير من الدراسات التي تناولت الثورة المهدية طرحت أفكارها بمنهج تاريخي توثيقي، دون أن تذهب إلى تقديم دراسات شاملة تستصحب معها مجمل العوامل الموضوعية (من حيث التأثير والتأثر) .

وحتى تلك التي حاولت الولوج تحليلياً في أسباب قيامها ونجاحها حصرت العوامل - مع موضعيتها - في العنف الذي صاحب الغزو التركي للسودان وبخاصة انتقام الدفتردار لمقتل إسماعيل ابن محمد علي حاكم مصر ، إلى جانب الضرائب الجائرة وطريقة جبايتها القهرية ، وللعديد من الممارسات المرتبطة بالعقلية الاستعمارية التركية.

أما من جهة النجاح فقد ذهبت جل تلك الدراسات إلى أن العامل الرئيسي هو ضعف الإدارة التركية وفقدانها السيطرة على الأمور وتقليلها من شأن الثورة والتعامل معها في بداياتها.

على الرغم من أن تلك الدراسات تناولت المهدي بوصفه قائد الثورة في إطار التوثيق التاريخي للأحداث التي صاحبت الثورة وتلك المرتبطة بشخصه، إلا أنها لم تفرد فصلاً لتناول مقدراته الذاتية في تحريك وقيادة الثورة واحتوائه لكل العوامل والظروف وإعادة إنتاجها بصورة تبرز قدراته الذاتية والشخصية وتفجيرها بما حقق له النجاحات الكبرى

كما ان منهج الدراسات التي تناولت المهدي كانت: إما منهجاً هجومياً حاول نفي صفة المهديّة عنه وبذلك تسقط كل دعواه وما أنبنى عليها، أو منهجاً دفاعياً حاول إثبات صفة المهديّة عليه حتى تكون سنداً قوياً لنجاحاته. ولكن كلا المنهجين أضرا بسيرة ذلك الرجل حيث انصرف الباحثون عن دراسة شخصية المهدي وركزوا جل اهتمامهم بالمهدية وأسانيدها وشروطها ومدى انطباقها على الرجل.

وهناك إشكال آخر ارتبط بسيرة الرجل وهو تحول الإمام المهدي من رمز وطني إلى رمز سياسي - في السابق وفي الوقت الحاضر - حيث كان المهدي قائداً لثورة قامت ضد المستعمر ومصالح الجماعات المرتبطة بذلك الاستعمار ولهذا كان من الطبيعي قيام دعاية مضادة له جعلت منه مركزاً لهجوم العلماء واختلاف الناس عليه.

ثم صار رمزاً سياسياً لما (للتقسيم الفطيرة) لما عرف (بأبناء البحر وأبناء الغرب) وفق الفرز الجهوي الضيق للصراع الداخلي الذي حدث بعد وفاته.

ثم صار المهدي رمزاً لطائفة الأنصار وحزب الأمة

وهذا الأمر كله صار خصماً على رصيد الرجل من اعتباره رمزاً وطنياً.

لذلك لا بد ان يكون منهج قراءة سيرة هذا الرجل ، لا من واقع تسلسل زمني كيفما درجت الدراسات التاريخية التي تتناول السير الذاتية ، بل من خلال نظرة موضوعية تحاول الربط المنطقي بين المقدمات والنتائج بتحليل علمي للأحداث ووضوح كل منها تحت عنوان يكون مقدمة لنتيجة تاريخية حدثت .

ثانياً: إشكالات المصادر

قلّة الدراسات، ذكر البروفيسور قاسم عثمان نور انه في عام 1981 في فترة الإعداد للاحتفال العالمي بالعيد المؤوي للثورة المهدية بحث في مكتبة جامعة الخرطوم وجد أن هناك أربعون كتاباً تتناول سيرة غوردون ولم يجد كتاباً واحداً يتناول سيرة الإمام المهدي (1).

شفاهية المعلومات: ولعله من الإشكالات الكبيرة المرتبطة بالمصادر هي غياب مصادر لدراسة الإمام المهدي قبل الثورة، عدم وجود معلومات عن المهدي قبل مهديته، وجل ما تم جمعه فهو (محكي).

وانعكس ذلك على كثير من الدراسات التي اعتمدت على مصادر الشفاهية والنقل والحكي الشعبي وهي بذلك تعد مصدر (مضطرب) في ظل تمجيد الامام المهدي من عامة الناس وسرد حكايات وخوارق عنه.

على الرغم من أن تلك الدراسات قد وثقت تلك الإفادات في حواشيها إلا أنها تظل مصدراً ثانوياً، وكما هو معلوم بالضرورة أن الاعتماد على المصادر الثانوية في الدراسات التاريخية يعتبر ضعفاً منهجياً يقدح في أصالتها. المصادر الاستخباراتية والحربية المكتوبة: الأشكال الآخر هو ذلك المرتبط بالوثائق التي غالباً ما كانت مكتوبة في شكل تقارير استخباراتية في ظل واقع حربي وعسكري، وكتابات عدائية.

(1) . في الفترة من عام 1964 – 1974 ، توجد 14 رسالة ماجستير ودكتوراة ، في الفترة من 1974 – 1981 ، أطروحة واحدة .

مظاهر القيادة التغييرية عند الإمام المهدي:

تُعَدُّ الثورة المهدية في السودان نموذجًا تاريخيًا فريدًا للقيادة التغييرية في سياق استعماري واجتماعي بالغ التعقيد. فقد استطاع الإمام محمد أحمد المهدي أن يمارس دور القائد التغييرى بامتياز، إذ جمع بين الرؤية الواضحة للتغيير، والقدرة على إلهام الأتباع، وتوظيف الرمزية الدينية لإعادة تشكيل وعي المجتمع السوداني وتحفيزه نحو مقاومة الظلم وبناء دولة ذات مرجعية دينية.

لم تكن دعوته مجرد خطاب عقائدي، بل كانت مشروعًا تحويليًا يستند إلى مقومات شخصية قيادية عميقة، مثل الكاريزما، والالتزام الأخلاقي، والقدرة على استشراف المستقبل، مما مكنه من تجاوز الانقسامات القبلية والاجتماعية، وبناء ولاء جماهيري واسع. وبهذا المعنى، فإن سيرة الإمام المهدي تفتح مجالًا واسعًا لتحليل آليات القيادة التغييرية في بيئة ما قبل الدولة الحديثة، حيث وظّف القائد شخصيته وأفكاره في إحداث تحوّل جذري في بنية السلطة والمجتمع.

أولاً: المقدرات الذاتية للإمام المهدي:

بعد إعلان الإمام محمد أحمد المهدي للمهدية ووقوع معركة الجزيرة أبا وانتصاره فيها أصبح المهدي قائداً ذو مسئولية (مزدوجة) مهمة (فكرية) تتمثل في الدفاع عن فكرته و(عسكرية) تتمثل في قيادة مقاتلين ضد الحكومة الاستعمارية. هنا تجلت عبقرية القيادة وظهرت القدرات الذاتية والشخصية للمهدي في التعامل مع المعطيات الموضوعية المحيطة وذلك بقدرته فائقة على الربط المنطقي بين الحقائق على ساحة معركته الفكرية والعسكرية حوله.

1. الكاريزما

كان محمد أحمد يتصف بالعناد والتصميم والاندفاع الحماسي نحو الأمور التي يتصدى لها ويمضي في الطريق حتى نهايته. وقد اعترف له أعداؤه

بهذه المسألة، يقول القس أوهرولدر الذي سجن عشر سنوات في زمن الدولة المهديّة عن "المهدي": "كان مظهره الخارجي قوي الجاذبية، فقد كان رجلاً قوي البنية، سحنته تميل إلى السواد، ويحمل وجهه دوماً ابتسامة عذبة، وأسلوبه في الحوار حلو وسلس".

ويروي ونجت باشا -مدير مخابرات الجيش المصري- عن قدراته الخطابية فيقول: "إن الرجال كانوا يكونون يضربون صدورهم عند سماع كلماته المؤثرة، وحتى رفاقه من الصوفية لم يخفوا إعجابهم به، وليس في شكله ما يثير إلا عندما يبدأ الوعظ، وعندها يدرك المرء القوة الكامنة فيه التي كانت تدفع الناس لطاعته".

ويقرر المؤرخ السوداني د. محمد سعيد القدال ذلك بقوله: "لقد توفرت لمحمد أحمد صفات متميزة أهلته للقيادة في مجتمع السودان في القرن التاسع عشر، فهو صوفي زاهد يحظى بتقدير الناس ويهرعون إليه طلباً للغوث والبركة، وهذه هي الصفات الأساسية للقيادة في ذلك المجتمع، ومكنته دراساته المتنوعة من امتلاك قدرات علمية ولغوية واسعة، وله جاذبية (كاريزما) يؤثر بها تأثيراً قوياً على من حوله، وتضافرت كلها مع نشاطه العلمي وقدراته الذهنية فرفعت درجات وعيه الاجتماعي مما قاده إلى فكرة المهدي المنتظر التي كانت تضج بها جنبات المجتمع، ورأى نفسه الشخص المؤهل لحمل أمانتها".

2. المعرفة التامة بالسودان

تنقل المهدي قبل الإعلان عن دعوته في كثير من بلاد السودان، فقد انتقل جنوباً مع أسرته إلى الخرطوم من أجل التجارة وصناعة المراكب، ثم إلى أبا ثم تنقل في باحثاً عن العلم لدى المشايخ والطرق الصوفية ثم بعد أن أصبح من كبار الشيوخ في السودان عهد إليه شيخه بإعطاء الطريقة السمانية ونشرها في البلاد فجاب البلاد طولها بعرضها لهذا الغرض. هذا الأمر جعل المهدي يلم تماماً بطبيعة أرض معركته ويتعاطى مع تلك الطبيعة بقدره فائقة.

3. الفهم العميق لأحوال السودانيين

نتيجة طبيعية للمعرفة التامة بالسودان كان للمهدي فهم عميق جداً لأحوال السودانيين وهمومهم ونفسياتهم ولعل ذلك وضح في التكتيكات السياسية التي اتخذها المهدي والطريقة التي اتبعها في تعامله مع قواده وجنوده.

4. الاستراتيجية في التنظيم العسكري

اتخذ المهدي استراتيجية عسكرية رائعة وفق مراحل الصراع مع الحكومة مستهدياً في ذلك بالسيرة النبوية في الدعوة الإسلامية فقهاً وحركةً. ويمكن هنا الإشارة بصورة سريعة لتلك التكتيكات الإستراتيجية:

أ- الدعوة السرية

ب- الهجرة اختيار منطقة جبال النوبة (العمق الإستراتيجي).

ج- اختيار مكان المعركة أبا، شيكان

د- حرب العصابات. حملة هكس باشا

هـ- إدارة المعركة. استخبارات المؤكدة - سياسة الأرض المحروقة - ردم الآبار - الحرب النفسية

و- تكتيك الحصار والاستنزاف حصار الأبيض، حصار الخرطوم.

وهذه الأمور كانت مقدمات لنتائج واضحة وبينة وثابتة تاريخياً تتمثل في الانتصارات الحربية المتعاقبة للإمام المهدي التي أحرزتها الثورة المهدية.

ثانياً: وعي الامام المهدي بالقيادة التغييرية

المهدي قاد حركة تغيير كبيرة جداً بمعايير ذلك الوقت استهدف بها الدين والمجتمع ونظام الحكم وفي هذا الاتجاه يمكن أن تبرز العديد من الشواهد:

1. الإيمان بعملية التغيير في حد ذاتها.

فالمهدي تجاوز مجتمعه ولم يقدم نفسه كجزء من المجتمع الذي يعيشه واقعاً. بل قام بطرح نفسه كصورة أو جزء من المجتمع الذي يتصوره ويرغب فيه لنفسه ولأتباعه.

كذلك المهدي منذ صغره كان يجنح للتغيير ويتضح ذلك في رفضه للعمل في مهنة أسرته التي كانت تمتهن صناعة المراكب، ونجد أنه قد تنقل في العمل في التجارة والاحتطاب كما روت العديد من المصادر.

كذلك يظهر حب المهدي للتغيير تنقله بين الشيوخ لاكتساب العلم، وقد ظهر ذلك في تنقله في أجزاء كثيرة من السودان مما أكسبه معارف متعددة المصادر ومكنته من معرفة الكثير من الناس والتعرف على أحوال البلاد، الأمر الذي ساعده بصورة كبيرة في تكوين تصوراتهِ لإدارة التنوع.

2. امتلاك أدوات التغيير:

المهدي كان مؤمناً إيماناً كاملاً بالتغيير ومقتنعاً بضرورته للإصلاح. وكان المهدي قائداً حازماً وحاسماً، وكانت لدى المهدي القدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين، ويمتلك ثقافة عالية جداً ويجيد الخطابة، وكان قدوة حسنة، ويشكل الربط بين القول والفعل حضوراً طبيعياً في ممارسته الحياتية اليومية. وكانت لديه معرفة كبيرة بالرجال قدرهم وقدراتهم.

3. المهدي قدم نفسه في أعلى مراتب الصوفية (المهدية) وطرح نفسه قائداً ملهماً

المهدي وضع تصوره (الخاص) للتغيير بما في ذلك إصلاح مؤسسة الصوفية نفسها، وقد حكم على كل المجتمع بناء على تلك الرؤى ولم يستثن من ذلك الحكم على شيوخه ومعلميه. وفي هذا الإطار يمكن القول بصورة سريعة أن:

- المهدي لم يأتي بجديد أو شاذ عندما مناداته بالمهدية
- الجو النفسي الشعبي كان لا يرفض ومهيئاً لقبول فكرة المهدي المنتظر
- المهدي هياً نفسه تماماً لهذا الدور، حيث كان صوفياً ملتزماً.

وإن كنت أري أن يتم تحييد هذه الفكرة في أي دراسة موضوعية تتناول المهدية ، فالمهدية فكرة دينية تحوم حول المنقذ الذي سيملاً الرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وهي محل خلاف استغرق جهداً كبيراً بين الفقهاء نفياً وإثباتاً. إلا أنه يمكن ملاحظة المردود الإيجابي لفكرة المهدية في بعدها السياسي وأثرها على خلق رابط (جمعي) ساعد المهدي على إدارة التنوع ، حيث إستطاع المهدي وبذكاء شديد (تجيير) الدعوة إلى خطاب عقدي جمع حوله كلمة وطرح نفسه كقائد ملهم لجمع الاتباع حول خطاب واحد مقبول ، وبالتالي خلق أرضية لوحدة نفسية بين الأتباع :

- رباط روحي بينه وبين الأتباع سهل من الإنقياد الطوعي
 - وحدة نفسية بين الأتباع سهل من وحدة ومركزية قائدهم ،
 - التفاف الناس حول قائد ملهم يصدق في القول والفعل وإيمانهم به ،
 - لب الفكرة (الأخاذ) في بعدها الاجتماعي والسياسي الذي يقوم على إزالة الظلم وإقامة العدل .
 - قدرة المهدي بوصفه (قائد) على القيام بأمور تقفز على الواقع سهلت له التأثير المباشر على (أتباعه) ومكنته من السيطرة والتوجيه .
4. الاعتماد على قيادات جديدة :

المهدي وفي سبيل ادارة التغيير نجده قد اعتمد على قيادات شابة وجديدة، لم تكن أرقاماً في المجتمع ولكنها آمنت به وبرؤيته في التغيير.

ثالثاً: فلسفة الامام المهدي في إدارة التغيير، الوعي الذاتي بتنوع المجتمع السوداني

بالنظر للواقع الاجتماعي في السودان- قبل الثورة المهدية - كان متنوعاً ويحتوي على كثير من المتناقضات وروابط الانتماء المتمثلة في القبيلة، الطريقة الصوفية، العلاقة مع الحكومة (مع - ضد) ، طبقة الأغنياء والفقراء ، مجتمع سمته الأساسية التفرقة ، وعوامل الربط اقل بكثير ، مجتمع تلعب فيه الطريقة الصوفية الدور الأهم وتتفوق في ذلك على القبيلة . في هذا الإطار يمكننا ملاحظة العديد من الشواهد التي انطلقت منها وعي الإمام المهدي الذاتي بذلك التنوع والاختلاف:

1. المعرفة التامة بأحوال البلاد والعباد:

تنقل المهدي في البلاد باحثاً عن العلم، وفي بعض الأحيان للعمل. كذلك طوافه في البلاد لإعطاء الطريقة الصوفية. كل ذلك جعله لا يجد صعوبة في فهم طبيعة البلاد ونوعية العباد وأدراكه لواقع التنوع وبالتالي تبلور فلسفة التعاطي معه.

2. العمل على خلق رابط جديد في المجتمع:

سعى المهدي لخلق رباط جديد بدلاً عن الطريقة الصوفية والقبيلة، فجعل من دعوته المهدية محوراً لذلك الرابط الجديد. وفي إطار ذلك الغى جميع الطرق الصوفية وعطل العمل بالمذاهب الأربعة. وفي اعتقادي أنها ترتيبات في (ظواهرها دينية) الا انها في حقيقة الأمر (سياسية) القصد منها الترويج للرباط الأوحد المهدية.

3. إيجاد معايير جديدة:

تمثل المعيار الأول في مركزية القيادة الروحية بحيث شكل المهدي الشخصية المركزية للثورة قائداً وملهماً .

والمعيار الثاني تمثل ايجاد مفاهيم الجديدة للتمايز بين الجماهير، فجعل الترتيب بالإنتماء للدعوة المهدية (أباكار المهدية ، أنصار أبا ، أنصار تقلي ..) .

المعيار الثالث ، تمثل في لا مركزية القواد بمعنى أنه يختار الرجل المناسب للمهمة المناسبة ، فكان يختار لقيادة أي مجموعة رجل منها . وكان يختار لأي مهمة رجل من ذات المنطقة المطلوب تنفيذ المهمة ز

والملاحظة الجديرة بالإشارة إليها هي أن المهدي كان يختار لأي مهمة في جهات الجزيرة والشمال قائد معروف عنه صوفيته ، وأي مهمة في الغرب أو الجنوب كان يختار لها قائد له مكانته في قبيلته .

خاتمة:

لقد سعت هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية لسيرة الإمام محمد أحمد المهدي من منظور نظريات القيادة التغييرية، بوصفه قائداً تاريخياً تمكن من إحداث تحول عميق في الوعي الجمعي السوداني في نهاية القرن التاسع عشر، وتوجيه ثورة شعبية شاملة ضد نظام استعماري متجذر. وقد بينت الدراسة أن نجاح الثورة المهدية لم يكن مجرد نتاج لظروف سياسية مواتية أو لفشل الإدارة التركية فحسب، بل كان بدرجة كبيرة ثمرة مقدرات ذاتية استثنائية تمتع بها الإمام المهدي.

من خلال تحليل الأبعاد المختلفة لشخصيته القيادية، يتضح أن الإمام المهدي قد جسّد خصائص القائد التغييري كما تطرحها النظريات الحديثة: فامتلك رؤية واضحة ومشروعاً إصلاحياً متكاملًا، واستخدم الإلهام والتحفيز لتعبئة الجماهير، وأبدى فهمًا عميقًا لتركيبية المجتمع السوداني وتنوعه، مما مكّنه من تجاوز الانقسامات القبلية والدينية، وتأسيس رابطة جديدة قائمة على الولاء للدعوة المهدية.

أظهرت الدراسة كذلك أن الكاريزما الشخصية، والخطاب الديني - الاجتماعي المؤثر، والمعرفة الواسعة بطبيعة السودان وأحوال الناس، كلها

عناصر أساسية ساهمت في صياغة تجربة الإمام المهدي كقائد تغييري، استطاع أن يدمج بين الوظيفة الفكرية والرمزية، وبين الإدارة العملية والتنظيم العسكري. كما أن المهدي لم يقدر الثورة فحسب، بل أعاد تعريف مفاهيم الانتماء، وموقع الدين في الحياة السياسية، ووضع أسساً لرؤية مختلفة للحكم والمجتمع.

لقد أبرز المقال حجم التحديات المنهجية والمصدرية المرتبطة بدراسة سيرة الإمام المهدي، خاصة في ظل طغيان السرد الأيديولوجي أو التوثيقي المحايد على التحليل القيادي والفكري. وهو ما يستدعي إعادة النظر في الإرث المهديي باعتباره حقلاً غنياً لتحليل القيادة في سياق ما قبل الدولة الحديثة، وليس فقط جزءاً من التاريخ السوداني السياسي أو الصوفي.

إن تجربة الإمام المهدي تمثل حالة فريدة من حالات القيادة التغيرية في التاريخ الإسلامي الحديث، وهي مثال حي على كيف يمكن لشخصية واحدة، ذات وعي ذاتي ورؤية تغيرية، أن تحدث تحولات كبرى في واقع بالغ التعقيد. ومن هنا، فإن استدعاء هذه التجربة لا يكون فقط بغرض التمجيد أو النقد، بل من أجل الفهم العميق للكيفية التي يُمكن بها للقادة إحداث التغير، متى توفرت لهم أدوات التأثير، وشروط الوعي، وإرادة الفعل.

الفصل الثاني
الذكرى الـ 140 لوفاة
الإمام المهدي
ومشى في الصبا قسيم المحيا

الفصل الثاني

الذكرى الـ 140 لوفاة الإمام المهدي ومشى في الصبا قسيم المحيا

أ. د. عبد الله علي إبراهيم

قبل 140 عاماً، تحديداً في الـ 22 من يونيو (حزيران) 1885 أسلم الإمام محمد أحمد المهدي الروح راضياً مرضياً ولم تنقُض خمسة أشهر من فتحه مدينة الخرطوم والقضاء على النظام التركي- المصري (1821-1885) فيها.

وسأل المؤرخ محمد سعيد القدال سؤالاً لم يطرأ للمؤرخين وهو كيف استطاع شاب في الـ 35 ربيعاً استثارة ثورة لم تستنفر السودانيون في يومهم للقضاء على النظام التركي- المصري وحسب، بل ظلت معهم عند كل منعطف من تاريخهم ومنعرج. فهو "يخيم" حتى على حربهم ليومنا لم يجل الاضطراع بينهم وبينه. فحين احتلت قوات "الدعم السريع" مدينة الخرطوم عام 2023 قالوا إن التاريخ يعيد نفسه هنا. فهم ما زادوا على اقتفاء أثر أجدادهم من شعب البقارة، المزعوم أنها جند المهديّة قديماً وحاضرة "الدعم السريع" ليومنا الذين فتحوا الخرطوم في 1855 تحت راية المهديّة. وقال خصومهم في صف القوات المسلحة إنكم بالفعل تعيدون ما عاثوه أجدادكم فساداً في المدينة.

1

يخرجنا سؤال القدال من أخذ ثورة المهدي كقدر لا كفعل إنساني لم تسق إليه أشراف اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية (مثل أنه جاء في 1881 رأس القرن الهجري الذي هو زمان المهدي). فبدا للمؤرخين غيره أنه ما دام أن المهدي أكمل عدة الثورة لم تُعد لحياته لما قبل الثورة قيمة سوى أنها مقدمة لحدث لم يكن من مهرب منه أن يقع كمواسم الطبيعة. وربما كانت قصيدة التيجاني يوسف بشير (1910-1937) "في دُجى مطبق" التي ندرت الإشارة إليها في معرض الحديث عن المهديّة، هي من ألهم القدال السؤال فاستشهد بها طوال كتابه "الإمام المهدي" (1991). وقال التيجاني عن طراوة عمر المهدي وثورته: ومشى في الصبا قسيم المحيا هيئت نفسه لكبرى الأمور.

وكانت للتيجاني في الشباب الذي صرع هو نفسه وهو في بواكيره، نظرات ثاقبة. وهكذا جاء القدال بتعليل نبه لتغاضي المؤرخين عن طفولة المهدي وشبابه. فطالما بدأت حياته بإشهار مهديته في 1881. فالمهدي عندهم قبل ذلك لم يكن سوى حال من الاستعداد والتربص ليقوم بذلك الدور.

2

يُنسب المهدي إلى شعب الدناقلة النوبي بلسانه غير العربي. فزجره أستاذه محمد شريف نور الدائم حين اختلفا قائلاً "أنت دنقلاوي مجلد بجلد شيطان". وبقدر ما جرت هذه النسبة على اللسان، في حين نسب هو نفسه للأشراف الحسينية كما في تقليد الأسرة، لم يسأل أحد عن لغة أمه وإن كان قد نشأ في بيته عليها. ولم يسأل أحد لم كانت الأشراف (الشلوخ) الثلاثة على وجهه أفقية ليست من أشراف شعب الدناقلة الثلاثية الرأسية. وجاءت الدكتوراة فاطمة محمد أحمد بتخريج معقول لهذا الخلاف.

فقالت إن جدة المهدي لأبيه كانت من شعب الشايقية الجار للداقلة عند منحنى النيل. فكانت أسرة المهدي المنسوبة للأشراف انقسمت بين من سكن بين الداقلة ومن سكن بين الشايقية. واتصل الرحم بينهما حتى تزوج جد المهدي قرييته من دار الشايقية. وقالت فاطمة محمد أحمد إن المهدي خلال صغره زار مع أهله أقرباءهم في الشايقية.

وحضر الدرس في الخلوة يوم مجيء ”الصلاح“ (من يصنع الأشرار على الوجوه) لتلك الخلوة بغرض تشليخ تلاميذها. واستهوى الأمر المهدي الطفل فطلب أن يشلخ مثلهم مع أنه غير معدود فيهم. وأصر المهدي وبكى فاسترضاه شيخ الخلوة بأن سأل الشلاخ أن يصنع عليه شلوخاً خفيفة جداً. ومهما يَكُن من صدقية هذه الرواية عن الواقعة فهي الرواية الوحيدة التي دخلت على أسرة المهدي في طفولته من جهة شلوخه للمرة الأولى.

3

لن تجد في سيرة المهدي ذكراً أن كانت عقدت للمهدي زمالات في معاهد العلم نجدته لما اختار السكة الخطر في التبليغ والدعوة والثورة. وهذه الزمالة مما لا تخلو منه سيرة تائر محدث في مثل قولنا إن هذا السياسي دفعة الآخر في مدرسة حنتوب الثانوية التي يعزى إليها تخريج جيل سياسي كامل. والانصراف عنها في سيرة مثل المهدي توحى وكأن طلاب الخلاوي خلق لا تدني عشرة الطلب وأحدهم من الآخر في مطلب الحق، غير أننا نجد سيرة الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم، شيخ العلماء بعد احتلال الإنجليز للسودان عام 1898، تتقاطع مع المهدي بصورة معجبة. فتخرج كلاهما من المعاهد نفسها بغير أن يتعاصرا لفارق السن. فكلاهما درس القرآن في خلوة الشيخ محمد المبارك، جد أبو القاسم، بحلة بري التي هي الآن حيّ في قلب الخرطوم.

وكان المهدي طلب العلم فيها في صباه مع أسرته في حي "سلامة الباشا" بالخرطوم. ثم اختلفا لنفس خلوة الشيخ محمد الخير المعروفة بـ "خلاوي الغبش" بجهة بربر على مسافة 364 كيلومتراً شمال الخرطوم. وما دعا المهدي بدعوته حتى خرج أبو القاسم في أهله للبيعة. وصار كاتب المهدي والخليفة عبدالله من بعده.

4

ومما يغري باستدعاء اختلاف المهدي وأبو القاسم للمعاهد نفسها ربما تأثير شيخهما محمد الخير في خلاوي الغبش القريبة من مدينة بربر. فمن مرويَات تلك المنطقة أن الشيخ محمد الخير كان ذا نفرة في الدين في إزالة المنكر. واشتهر باسم "الضكير"، وهو "الذكير" أي مكتمل أركان الرجولة. فكان يقود تلامذته في غارات متصلة على المنكر في بربر يصلحه بيده ولسانه. وكان منكر بربر، المدينة التجارية الثانية في السودان يومها، كبيراً في ما يبدو. فقال شاعر رآها من بعد:

بشوف بربر بشوف جوخا وحريره

بشوف الميضة (المئذنة) القبل (المقابلة) الجزيرة

وهما طرفا النقيض في معادلة المدن التي يفسق مترفوها وتبطر معيشتها. وقد انتفضت بالمهدية المئذنة على الجوخ والحرير، وسوت بها الأرض فصارت خراباً يسميه الناس "الشرام". وترحل الناس عنها إلى موضع قريب منها هو بربر الجديدة لأن المهدية لم ترد لهم أن يسكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم. وما أعلن المهدي دعوته إلى الثورة حتى لبي أستاذه شيخ الخير الدعوة من الوهلة الأولى وصار أميراً عن المهدية في ناحيته.

توحي قراءة سيرة المهدي التي نعجل بها إلى يوم خرج بالمهدية إلى أنه ريفي المناشئ في دنقلا ثم كرري في ريف أم درمان الحالية.

ولكن القдал وطنه في المدينة كما لم يفعل مؤرخ قبله. وكانت الأسرة غادرت دنقلا هرباً من اضطهاد كاشف ضيق عليهم هو جد الرئيس جعفر نميري الذي كانت له مع أنصاره والإمام عليهم من ذريته معركة دامية مشهورة عام 1970. وبعد سكنى قصيرة في كرري التي شهدت لاحقاً المعركة التي قضت على دولته، بعد دنقلا ووفاة والده وهو في عمر الثامنة سكنت الأسرة الخرطوم، وبها توفيت والدته التي زار قبرها بعد فتح المدينة عام 1885. وعرض القдал للاقتصاد السياسي للخرطوم، فكان النظام التركي وحد السوق الداخلية للسودان في دولته المركزية، وربطها بالسوق الإقليمية والعالمية.

وجاءت الذروة من ذلك بنجاحه في توغله في جنوب السودان بفضل أسطول بواخره الحديثة باجتياز حزام الحشائش الذي قام سداً بين شقي البلاد، فانفتحت سوق كانت النخاسة عنوانها الأكبر مع سن الفيل وغيرهما. ووقعت بالنتيجة "هرولة" أوروبية للثروة المستجدة جعلت الخرطوم شبيهة لمدن أميركية عرفت "مدن الانتعاش" الشرسة التي يطغى فيها مطلب كسب المال في حين تتضاءل الروح فيها. وصور الرحالة الفرنسي غاليوم ليجان الذي زار الخرطوم وقتها وكتب عن رحلته على النيلين عام 1865، ذلك الأخدود بين كسب المال وخسارة الروح. فسمى الخرطوم "أوروبا الصغيرة غير الفاضلة". فالفرد يحيا فيها بلا مسؤوليات كبيرة أو مطالب روحية، وقال إن من جاءها من الأوروبيين كانوا تجاراً مفلسين ومجرمين وعتاة ليجربوا حظهم في جمع الثروة، أو ليحفروا قبورهم بأيديهم غير خائفين خسارة شيء لأنهم لا يملكون شيئاً. وزاد ذلك من انزلاقهم إلى كل ما هو بعيد من الفضيلة وتثببت صفات الفساد والغش والعنف في نفوسهم.

وهكذا جاءت هجرة أسرة المهدي التي انتهت إلى الخرطوم إلى مدينة "سدومية" في وصف الدكتور أحمد سيد أحمد في كتابه "تاريخ الخرطوم تحت الحكم التركي" (عام 2000) ضمن موجات هجرات الدناقلة إليها. وسكنوا "حلة المراكبية" لارتباطهم بتجارة الرقيق كحراس للبضاعة والتجار أنفسهم. وكان أكثر البغاء في المدينة في الحي الذي سكنته أسرة المهدي، سلامة الباشا. وكان ذلك فوق احتمال فتى في زهادة المهدي وشغفه بالحق وتقواه.

6

تنتشر في سيرة المهدي أوضاع من الروع تندّت بها عيونه خشية وتقوى، بل ذكر له صرعه بالمعاني أستاذه محمد شريف نور الدائم، من قادة الطريقة السمانية، حتى بعد خلافهما المعلن في قصيدة جاء فيها:

كم صام كم صلى كم تل من الله ما زالت مدامعه تجري

فالمروى عن أستاذه محمد شريف نور الدائم أنه دخل عليه يوماً فوجده يطالع كتاب "إحياء علوم الدين" وهو يقطر دمعاً يبكي. وكتب بابكر بدري، التربوي الساطع في القرن الـ20 والذي حارب في جيش المهديّة شاباً، في المعنى أن المهدي زار بلدتهم رفاعة على النيل الأزرق خلال سياحاته، داعياً في جماعة من تلاميذه، ووصفهم بأنهم كانوا ذوي وجوه مشرقة وثياب نظيفة وأذكارهم نسيقة. وكان بدري يشغف بأداء صلاة المغرب خلفه، فقال إن المهدي قرأ مرة سورة القارعة في الركعة الأولى فلما بلغ "يوم يكون الناس كالفرش المبتوث" صعق وخرّ مغشياً عليه. فتقدم أحد حيرانه وأتم الصلاة بالناس. وظل المهدي في صعقته حتى انفذ الجمع. وزاد قائلاً إنه كان ملتصقاً بصفحة المهدي حين جاء الخرطوم بعد سقوطها في يناير (كانون الثاني) عام 1885 يتفقد بيت

المال. فرأى حلي الذهب وسبائكها فالتفت عنها بسرعة البرق وصد عنها راجعاً. فخطر لبابكر في الساعة بيت البصري ”فراودته الجبال الشم من ذهب.“ وصلى بابكر في يوم آخر مع المهدي فلما قرأ ”وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها“ انحنى المهدي حتى ظنوا أنه سيموت، ولكنه لما رفع رأسه فإذا لحيته كلها تقطر دموعاً.

7

يبدو أننا مع موعد لسيرة للمهدي أفضل مما بيدنا متى ائتلفت فيها نظرات القدال وإثنوغرافيا سيد أحمد لخرطوم القرن الـ19. فلقد رأى الفتى الإلهي مدينة ترزح في اقتصاد باطلها. ونمى في نفسه تلك التقوى بالعلم والتصوف معاً التي تندى شفقة بالخلق عيال الله. وخرج في جيل سوداني سماه المؤرخ التيجاني عامر ”دراويش وفرسان“. وهي الطاقة المجهولة ربما التي من وراء تعاقب ثورات السودان منذ استقلاله عام 1956.

الفصل الثالث
الذكرى الـ 140 لوفاة
الإمام المهدي
وثائق غائبة أم مُغيّبة..

الفصل الثالث

الذكرى 140 لرحيل المهدي وثائق غائبة أم مُغَيَّبة..

د. محمد المصطفى موسى

مقدمة:

تمر علينا هذه الأيام الذكرى 140 لوفاة الإمام محمد أحمد المهدي. وهي ذات الذكرى التي ما زالت وقائعها تحتاج لسبر موضوعي عميق يُعَلِّق من شأن أمانة التوثيق سعياً لاستقامة قسطاس التاريخ. مثل هذا النوع من الدراسات يتطلب إعمال المزيد من التمحيص الأكاديمي في الوثائق المكتوبة بخط يد المهدي نفسه ومن عاصره من مفجري الثورة المهدية فيما سبق الواقعة ذاتها. ونعني هنا تحديداً ما دونه معاصرون للثورة على نحو الأستاذ محمد عبد الرحيم في سفره القيم "نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والإجماع"، السيد علي المهدي في "أوراقه" والأمير محمود آدم حلو في مخطوطته "الفتوحات الربانية". ومن ذلك أن إفتقار الذاكرة التاريخية الوطنية لهذا المخزون المعرفي المهم يُحْجِم بدوره من محاولة رؤية نهر التاريخ من ضفة موازية ولكنها في غاية الاختلاف والأهمية. بيد أن الأثمن من ذلك كله، يبقى متمثلاً فيما حفل به أرشيف الصحافة البريطانية والعالمية وأضابير الكتابة الإبداعية المعاصرة للثورة من أدبيات متعلقة بوفاة المهدي. ولا شك أن هذا الحشد الوثائقي كله يوضح مفصلة تلك الواقعة على تاريخ السودان وأثرها الإقليمي والعالمي على توسع بريطانيا في مستعمرات ما وراء البحار.

كيف توفي المهدي وماذا ورد عن مرضه في المنشورات التي خطها بخط يده؟ وماذا ورد في الأدبيات السودانية المروية عن ذلك؟ وما هو صدى

نبأ وفاته على وسائل الإعلام والصحف البريطانية والعالمية آنذاك، وكيف تناول المؤرخون البريطانيون تلك الأحداث؟

فلنترك الوثائق المكتوبة تجيب على هذا السؤال.. ففيها ما يكفي من الإبانة واليقين الذي يجلي حقائق الأشياء.

بعد تحرير الخرطوم وتحديداً.. في مايو 1885 الموافق شعبان 1302 هجرية (أي قبل أقل من شهرين من تاريخ وفاته) كتب الإمام المهدي لأحمد ود سليمان أمير بيت المال معزياً في وفاة الأمير العبيد محمد سعيد .. وذكر نصاً: ”شوقه (اي المهدي) للقاء الرحمن في كل آن حتى نجد المقصود عند انقضاء الأحيان “. كما ختم خطابه مؤكداً على مضمون الرسالة بقوله ”ان موت أعز الاحباب داعٍ إلى الوثوق بالوهاب والفرار من دار السراب ولا شك أن إنتقال الحبيب العبيد شوقنا إلى لقاء الله الحميد والسلام .. (أبوسليم: الآثار الكاملة للإمام المهدي، المجلد الخامس، ص 186) وبعدها ببضعة أيام خاطب المهدي الأمير أحمد ود سليمان مطالباً بالإسراع في تجهيز الجيش المتجه لتحرير مدينة سنار وذكر عدم تمكنه من الحضور لتوديع الجيش بنفسه لمرضه. ولعلها أولى الوثائق التي يتحدث فيها المهدي عن مرضه بشكل واضح. وأتبع ذلك بخطاب آخر لأحمد ود سليمان معزياً في وفاة الأمير إسماعيل الدود. وذكر فيه أن إشتداد المرض عليه منعه من الحضور بنفسه للصلاة على جثمان المتوفي. (خطابات المهدي لأحمد ود سليمان بتاريخ أوائل شعبان الموافق مايو 1885، أبوسليم : مصدر سابق).

وعلى الرغم من إشتداد المرض على المهدي إلا أن ابراهيم فوزي باشا الضابط والإداري المصري الذي وقع في أسر الثوار بعد تحرير الخرطوم يذكر ما يفهم منه انه صلى خلف المهدي صلاة ليلة النصف من شعبان حين يقول: ”وصلى المهدي بالناس في ليلة النصف من شعبان مائة ركعة بالقرآن كله رافعاً صوته بالقراءة باكياً“ .. (ابراهيم فوزي: السودان بين يدي غردون وكتشنر، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة، ص 26) .

وفي اليوم الأخير من شعبان 1302 هجرية عاد المهدي عودته الأخيرة الى مدينة ام درمان من الخرطوم التي زارها لتفقد أحوالها فأزعجه ميل بعض الانصار عن التقشف والزهد وإيثارهم لحب الدنيا وسكناهم في قصور أعيان الخرطوم وباشواتها من المستعمرين.. فخطب خطبة الجمعة الأخيرة في مسجدها وقرع ذلك المسلك تقريعاً عنيفاً. وتلى قوله تعالى (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم) .. الآية 45 سورة ابراهيم. وستكون تلك آخر صلاة له بمسجد مدينة الخرطوم قبل وفاته. (أوراق السيد علي المهدي، نسخة بخط يد الشيخ سليمان اديب، ص 89 ، دار الوثائق السودانية) .

عند ثبوت هلال رمضان 1302 وبعد صلاة المغرب طلب المهدي من الناس العفو وذآكرهم في فناء الدنيا وخير الآخرة وقال ” إن هذا شهر رمضان وهو شهر عظيم نريد أن نقبل فيه على الله فلا تشغلونا فيه بأشغال دنيوية وقد عينا لكم خلفاء وقضاة ونواب وأمراء فمن كان عنده قضية أو أمر فليرفعه لجهة اختصاصه ، أما المظالم والحاجيات التي تخص بيت المال فأرفعوها إلى أمين بيت المال ” .. (علي المهدي : مصدر سابق).

ويتوافق ما تقدم ذكره تماماً مع مضمون آخر منشور للمهدي والذي صدر في نهايات شعبان 1302 هجرية الموافق بالتقريب 14 يونيو 1885. وعُلق على حائط المسجد.. يذكّر فيه بقدوم شهر رمضان ويذكر أنه شهر الاشتياق إلى الرحمن ويطلب أن لا يشغله أحد بقضاء حاجة من حوائج الدنيا لأنه سينقطع للذكر والعبادة. ويحيل كل أصحاب الحوائج للأمراء والخلفاء لقضاء حوائجهم. وقد أورد المؤرخ البروفيسور أبوسليم نص المنشور كاملاً في ”الآثار الكاملة ” -المجلد الخامس ، ص 207 والذي ورد فيه : “ فتحققوا بذلك أيها الاحباب و أوصلوا أنفسكم لله و أرفعوا حوائجكم اليه فكلنا عبيد الله والأمر بيد الله فلا تشغلونا بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر و خلونا للذكر والتذكر و الصلوات والدعوات فها هم الخلفاء نيابة عني والأمناء المعنيين ” .

وفي ثاني أيام رمضان إشتدت الحمى على الإمام المهدي إلى أن إنتقل إلى رحمة مولاه في ثامن ايام رمضان 102 هجرية الموافق 22 يونيو 1885 فدفن في ذات الحجرة التي توفي فيها . وهي ذات المكان الذي يوجد فيه ضريحه الحالي ولم يتخط عمره آنذاك الثانية والاربعين بعد . وتقدم الخليفة علي ود حلو فبايع الخليفة عبدالله وتبعه الخليفة محمد شريف و بقية الأمراء. وتحولت المهديّة من ثورة إلى دولة فقدت قائدها في أحلك الظروف.

في عالم كانت تتصارع فيه القوى الاوربية لادحر حركات المقاومة التي تصدت لها كحال الثورة المهديّة، طارت تلك الأنباء سريعاً لتندلق على عناوين صحافة العالم. و تصدت صحيفة بريطانية مهمة على نحو " Sheffield Daily Telegraph " لنشر تحقيق صحفي " How the Mahdi died " أو " كيف توفي المهدي " . وخلصت فيه إلى أنه توفي بالحمى " رجحت أنها حمى مرتبطة بمرض الجدري " و الذي إشتد عليه منذ 19 يونيو حتى توفي في 22 يونيو 1885 .. كما ذكرت أن اخر وصايا المهدي كانت مواصلة حرب التحرير ضد الغزاة وأشارت إلى أن الخليفة عبدالله قد خلفه في إدارة الدولة. وفي نهاية التحقيق أشارت الصحيفة نفسها إلى أن خبر وفاة المهدي قد تناولته أبرز صحف العاصمة النمساوية " فيينا " ونقلت بدورها تهانيها الحارة عن خبر موت المهدي للحكومة البريطانية.. (Sheffield Daily Telegraph , عدد السبت 1 اغسطس 1885 , ارشيف الصحافة البريطانية) . والمدهش حقاً هو تطابق تفاصيل أيام مرض المهدي و فاته بالنص مع ما دونه محمود آدم حلو في " الفتوحات الربانية " . وكان حلو مقاتلاً مع المهدي منذ اندلاع الثورة المهديّة و حتى مواجهاتها الأخيرة مع البريطانيين في كرري و أم دبيكرات.

أما صحيفة " Hartlepool Mail " البريطانية والتي تصدر من مدينة درم بأقصى شمال إنجلترا فقد نشرت تحقيقاً بعنوان " Russia and the Mahdi's death " أو " روسيا و وفاة المهدي " . نوهت فيه إلى إهتمام الصحف الروسية بخبر وفاة المهدي وذكرت تحديداً صحيفة Novo Vermya الروسية الشهيرة و إهتمامها بنشر هذا النبأ . كما أشارت لقلق روسيا من النتائج المترتبة على ذلك

لأنها ستعطي بريطانيا تحلاً أكبر من خطر الثورة المهديّة على مستعمراتها. و النتيجة المتوقعة عندها ستكون إطلاق يد بريطانيا في منطقة آسيا الوسطى وهو ما تخشاه روسيا . (Hartlepool Mail ، عدد 30 يوليو 1885 ، أرشيف الصحافة البريطانية).

و أوفدت صحيفة ” Western Daily Press “الإنجليزية مراسلاً صحفياً إلى مدينة سواكن والتي كانت ما تزال تحت قبضة البريطانيين على الرغم من وقوعها تحت حصار قوات الأمير عثمان دقنة . ونوهت الصحيفة ذاتها لصعوبة تحديد أثر رحيل المهدي على السودانيين. بيد أنها ذكرت بوضوح أن مشايخ القبائل والأمراء هناك قد استولى عليهم حزن كبير لموت قائدهم. وقالت أن ذلك لم يفت من عضدهم بل يبدو انه زادهم تصميمًا، فهم يصلون صباحاً ومساءً للموت او الجنة ” praying night and day for death and heaven ”. ووصفت الصحيفة الأمير عثمان دقنة بالقائد الرائع الذي استطاع تثبيت قلوب المئات من أتباعه نحو الإلتفاف حول الثورة رغم رحيل قائدها. و نوهت أيضاً إلى أن رجاله الذين يقدر عددهم بالمئات ما زالوا قادرين على محاصرة 10,000 من القوات البريطانية في أماكنهم. (صحيفة Western Daily Press ، عدد 19 أغسطس 1885 ، أرشيف الصحافة البريطانية) .

وفي الذكرى الخامسة عشر لوفاة المهدي كتبت صحيفة ” York Herald ” البريطانية تحت عنوان ” The Sudanese Views of the Mahdi ” .. خلصت الصحيفة إلى أنه كان رجلاً عظيماً ” He was a great man ” .. كما أشارت إلى أنه لم يُهزم في معركة قط طوال حياته ” He never saw a defeat ” ويذكر صاحب المقال البريطاني أن هذه الحقيقة قد جابهه بها أحد الذين إستطلعهم من السودانيين وقد أوقعته صحة المعلومة التي كان يعرفها سلفاً في حرج بالغ إضطر معه الي تغيير الموضوع مع الشخص المستطلع رأيهِ ..

“ This was so true that I changed the subject ” ..

(صحيفة York Herald ، عدد 30 يونيو 1899 ، أرشيف الصحافة البريطانية).

وإستباقاً للذكرى ال ٤٩ لوفاة المهدي كتبت ”وسترن ديلي برس الإنجليزية“ لتذكر بتأييد القوميين الأيرلنديين للمهدي وثورته ضدهم في السودان . و تحدثت تحديداً عن المناضل القومي الأيرلندي وليام أو براين ومقاله الشهير بعنوان ”أسرع أيها المهدي“ و الذي زلزل أذهان قراء صحافة بريطانيا بذلك الوقت من خلال تأييده لمقاومة الشعب السوداني لنفوذ البريطانيين (أرشيف الصحافة البريطانية، ١٠ فبراير 1934) . وعُرف وليام أوبراين لاحقاً في أدبيات القوميين الأيرلنديين بمهدي ويسبورت.. ” The Mahdi Of Westport ” كناية على تصميمه على مقاومة الإنجليز و ذلك بعد جنوحه للإستقرار في مدينة ويسبورت بغربي أيرلندا في سنواته الأخيرة .

على مستوي المؤرخين البريطانيين فقد كتب ونستون تشرتشيل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق.. في معرض تقييمه لأحداث الثورة المهدية والتي عاصر أحداثها كمراسل حربي ومؤرخ.. كتب معلقاً على إنجازات المهدي قبل وفاته:

” مهما قيل عن المهدي ، فيجب ان لا ننسى أنه القائد الذي بث روح الحياة والامل في قلوب بني وطنه . لقد كان هو الزعيم الذي حرر بلاده من الحكم الأجنبي وحول شعبه من حياة بائسة بلا أمل الي حياة مفعمة و مليئة بالروعة . لقد أشعلت روح المهدي بين صدور السودانيين المتواضعة شعلة الوطنية والانتماء للدين . وصارت الحياة مليئة بالمخاطر المبهجة والمثيرة فعاش السودانيون في عالم جديد رائع ألهب خيالهم .. فهم إن عاشوا في هذه الدنيا ، فسيقومون بجلائل الاعمال .. وإن لقوا حتفهم في أثناء إشتباكاتهم مع مربعات الجيش البريطاني او القوات المصرية الغازية ، فمصيهرهم جنة السماوات عندها ”.. ثم يستطرد في حديثه إلى أن يقول ” ولذلك فإنني اعتقد أنه في سنوات المستقبل القريب إن هبت رياح التقدم والازدهار وأعقبها قطار الوعي والتعليم في ذات المسار لشعب وادي النيل , فعندها لن ينسى أول مؤرخ عربي يود أن يوثق لتاريخ تلك الأمة .. لن ينسى .. أن يكتب إسم محمد احمد المهدي في مقدمة ابطال

شعبه ” ... (ونستون تشرشل : حرب النهر ، الناشر .. Mau Publisng ،
نسخة الكترونية بتاريخ 2013 ، ص 52-53) .

وفي ذات السياق علق أستاذ التاريخ البريطاني البروفيسور ثيوبولد A.B. Theobold علي وفاة المهدي وانجازاته في حياته القصيرة .. من خلال سفره القيم ”The Mahdiya“ حينما كتب قائلاً :

“ كانت شهرة محمد أحمد المهدي كفيّلة بأن تحفظ إسمه للأجيال القادمة من بني وطنه .في خلال أربع سنوات ، صنع مجده من العدم . و إنتصر انتصاراً كبيراً على قوتين دوليتين تفوقانه عدة وعتاداً (بريطانيا وتركيا) . قام بوضع أسس الدولة الوطنية الجديدة.. كما قام بدعوة إصلاحية إستهدفت إصلاح ما فسد من دين شعبه . وحدّ السودانيين .. و غيّر طريقة وأسلوب حياتهم للأفضل . منحهم ثقة وإيماناً أكبر بمقدراتهم وبأنفسهم .. وقادهم نحو الحرية والانعقاد . ومع كل هذا ، إكتسب طاعة شعبه الكاملة و إحترامهم وتقديرهم اللامحدود .. هنالك عدد محدود من الرجال على مر التاريخ الإنساني ممن بوسعهم القيام بمثل ما قام به المهدي في السودان ” .. (اي . بي . ثيوبولد : المهديّة .. تاريخ السودان الانجليزي المصري، النسخة الإنجليزية، الناشر : Longman &Green ، لندن 1965 ، ص 130) .

أما فيما يختص بإستمرار كاريزما القائد بعد وفاته فقد تعرض لهذا الأمر بالتفصيل البروفيسور الأمريكي ريتشارد ديكيمي吉安 أستاذ العلوم السياسية بجامعة جنوب كاليفورنيا من خلال بحثه الأكاديمي بعنوان ”كاريزما القيادة في الاسلام، مهدي السودان ” بالتعاون مع المؤرخة مارغريت وزروميسكي . و قام ديكيمي吉安 بإجراء دراسة أكاديمية اشتملت على 140 من القادة والأمراء الذين ساندوا المهدي بتوظيف مصادر تاريخية متعددة ومتنوعة . فخلص الي أن وفاة المهدي المبكرة لم تؤثر على إيمان 126 منهم بمبادئ الثورة و الإستمرار في مقاومة البريطانيين.. أي أن 90 % قد واصلوا على ولائهم واخلصهم لمبادئه حتى النهاية..

وتراجع عن مبادئ الثورة 10 ٪ فقط من قادتها. ووفقاً لدراسته فقد إستسلم معظم هؤلاء أو تراجعوا عن المقاومة حينما صارت الهزيمة وشيكة . ويقرر ديكيمي吉安 أن تلك النسبة تعبر بوضوح عن إستمرار كاريزما القائد في تحريك الجماهير حتي بعد وفاته.. بل ويذكر أن المهدي لو عاش قليلاً لشكل تهديداً حقيقياً على سيطرة بريطانيا التي كانت تُخضع مصر ومستعمراتها في افريقيا . وفيما يختص بكاريزما القيادة التي كان يتمتع بها هذا القائد السوداني التاريخي ، كتب ديكيمي吉安 و وزروميسكي

» لقد كانت مقدرة المهدي على مخاطبة وتحريك الجماهير أفضل مثال للبساطة والوضوح المطلوب. في مجتمع معقد ومتعدد الأعراق والثقافات كما هو حال السودان في القرن التاسع عشر ، كانت الثورة المهدية تمثل نقطة إلتقاء لمطامح وآمال عريضة لقوى قبلية واجتماعية وسياسية مختلفة قاومت الإحتلال الأجنبي . لقد كان لكاريزما القيادة عند المهدي الدور الأكبر في تجاوز تقاطعات تلك القوى وإسترضاء أشتاتها المختلفة وتحقيق التجانس والإنصهار بينها ثم الوحدة الوطنية ومن ثم الانتصار للثورة ” .. ريتشارد ديكيمي吉安 و مارغريت وزموريسكي : كاريزما القيادة في الاسلام : مهدي السودان ، جامعة نيويورك ، الولايات المتحدة، 1972 ، Richard H. Dekmejian and Margaret J. Wyszomirski (1972). Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan. Comparative (Studies in Society and History .

وفي الميدان الثقافي، تصدى الشاعر الباكستاني الشهير علامة محمد اقبال لتخليد ذكرى وفاة المهدي من خلال ديوانه المعروف ” جافيد نامه“. وهو ذات الديوان الذي تمت ترجمته للغات الإنجليزية، الإيطالية والألمانية. وفيه يُخلد إقبال ذكرى المهدي بقصيدة تتحدث عن طيفه المنتصر فيما بعد الموت. وظل الطيف ذاته يلحق بفلول أعدائه المستعمرين وفي مقدمتهم كتشنر وهم نيام في برزخ العالم الآخر. وأجرى الشاعر على لسان المهدي نداءات عميقة للأجيال التي تليه من قادة المسلمين من

أجل توحيد الجهود لمقاومة القوى الإستعمارية (Javaid Nama محمد إقبال، ترجمه للإنجليزية آرثر جي أربري) .

صفوة القول أن المهدي قد عاش حياة قصيرة بحساب الزمن والأرقام. لم تتعد فترته في قيادة حركة المقاومة ضد القوى الإستعمارية الأربع سنوات إلا أنها كانت حياة حافلة بالعديد من الوقائع والأحداث التي أسهمت بقدر كبير في تشكيل ملامح السودان الحديث. ولم يخلف من ورائه إرثاً هائلاً من الأدبيات المكتوبة في الذاكرة الوطنية والغربية وحسب.. بل خلف من ورائه دولة وطنية متكاملة الأركان. ومهما اختلف المختلفون حول تفاصيلها إلا أنه لن يسعهم الإختلاف على كونها الدولة الوحيدة المستقلة في إفريقيا القرن التاسع عشر. وهي ذات الدولة السودانية التي ظلت تقاوم الاستعمار البريطاني بشراسة حتى نقطة النهاية معركة كرري.



دار آرِيثْرِيَا للنشر والتوزيع
Arithria for Publishing and Distribution

الناشر

دار آرِيثْرِيَا للنشر والتوزيع - الخرطوم - السودان

جوال: 00249122094856 - 121566207

البريد الإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

في عالم اليوم المتغير بسرعة، تبرز أهمية نماذج القيادة التي تعي وتركز على التغيير الجذري والتحول البناء، القيادة التغييرية تمثل إطاراً فكرياً حديثاً يسلط الضوء على كيفية إحداث تأثير عميق ومستدام في الأفراد والمؤسسات والمجتمعات. عند الحديث عن تاريخ السودان، لا يمكن تجاوز سيرة الإمام المهدي، ليس فقط كشخصية دينية مؤثرة، بل كقائد (تغييرى) قاد تحولاً كبيراً في وعى المجتمع السوداني في أواخر القرن التاسع عشر. دراسة سيرته تتيح لنا فهم كيف نشأت المهديّة كحركة مقاومة دينية وسياسية ضد الاستعمار، وكيف أصبحت دولة تواجه تحديات الحكم، التنوع، والتغيير. ومن خلال هذا الفهم، يمكننا قراءة ملامح الهوية السودانية الحديثة بشكل أعمق. كما أن سيرة الإمام محمد أحمد المهدي (1844-1885) تمثل مدخلاً أساسياً لفهم واحدة من أكثر الحقب تحوّلاً وتأثيراً في تاريخ السودان الحديث، وهي حقبة الدولة المهديّة (1885-1898)، إن دراسة سيرة الإمام المهدي ليست مجرد استرجاع لحياة شخصية دينية أو سياسية بارزة، بل هي نافذة لفهم ديناميات التغيير الاجتماعي والديني والسياسي في السودان في أواخر القرن التاسع عشر.



دار آريثريا للنشر والتوزيع
Arriyithra for Publishing and Distribution